فاعلية الإخبار في مؤلفات السرد العربي

م. م. زهراء عبد الكاظم محمد المظفر

أ. د. لؤي حمزة عباس

جامعة البصرة- كلية الآداب- قسم اللغة العربية

ملخص البحث:

تسعى الأخبار من خلال روايتها، للمحافظة في صياغتها على تحقيق فاعلية تمثل وصفا لكل ما هو فاعل، فتتمكن بذلك من تشكيل علاقاتها، وتنظيم مساراتها، بكل ما يتوافر لها من امكانات، لتوجه كل خبر ضمن وجهة محددة، حيث إن الأخبار المفردة التي عادة ما تمثل تجربة شخصية مفردة لصاحبها، يحرص الراوي على روايتها بنفسه، أو بوساطة من ينوب عنه، فدخول تلك الأخبار ضمن منظومات خبرية، يعمد إليها المؤلف، مع حرصه على التحكم بمجراها وتوجيه دلالاتها، يتمكن من منحها القدرة على الحركة وتحقيق مقاصد المؤلف، وتتسع مجالاتها فتنتقل من الإخبار إلى التخييل والتمثيل.

كلمات مفتاحية: سرد، متن، تأليف .

The Effectiveness of the News in the Writings of the Arabic Narration

Asst. Lect. ZAHRAA ABDULKADHIM MOHAMMED ALMUDHAFIR
Prof. Dr. LUAE HAMZAH ABBAS
Dept. of Arabic , College of Arts , University of Basrah

Abstract:

Through its narration, the news seeks to maintain in its formulation an effectiveness that represents a description of everything that is active, so that it is able to form its relationships, and organize its paths, with all the capabilities available to it, To direct each news within a specific destination, as the single news that usually represents a single personal experience for its owner, the narrator is keen to tell it himself, or through his representative, so the entry of those news within news systems, which the author intends, with his keenness to control its course and direct its connotations, he is able to give it the ability to move and achieve the author's intentions, and its fields expand and move from telling to fiction and representation.

Keywords: Narration, Text & writing.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٧ – آذار لسنة ٢٠٢٢

مدخل:

الحمدُ للهِ رب العالمين والصلاةُ والسلام على خيرِ خلقهِ أجمعين محمد وآل بيته الطيبين الطاهرين

من أجل إدراك فاعلية الإخبار لابد من فحص المكونات السردية التي تعمل ضمن نسيج واحد، التي يكون فيها النص السردي منتجاً ثقافياً متمكناً من قول الكثير عن البنى التي أسهمت في إنتاجه، من خلال البعد التبادلي في عملية التأليف. فالثقافة بانفتاحها واتساع آفاقها تعمل على إنتاج النصوص وتحديد متجهاتها. هذا البعد التبادلي يعد مؤشراً نوعياً على فاعلية النصوص في تجاورها وتقاطعها وتداخلها، وعلى فاعلية الثقافة وهي تنتج عبر شبكة معقدة من النصوص، التي تشكل موقعاً بالغ الأهمية في مؤلفات السرد العربي، لما حققته من إسهام في صياغتها للأنواع الأخرى، حين قامت بالدرجة الأساس على فاعلية إخبار ارتبطت على نحو مباشر بحركة السياق الثقافي، وعملت على توجيه عناصرها استجابة لشروط التأليف، لتحقيق أهدافه، بتقديمه مكوناً بنيوياً من مكونات النصوص وتأخيره لآخر(١).

تحافظ الأخبار في صياغتها على فاعلية تمثل وصفا لكل ما هو فاعل(٢). فتشكل علاقاتها وتنظمها مستندة إلى ما يتوافر لها من إمكانات، لتوجه كل خبر وجهة محددة، يصعب إدراك تلك الفاعلية من دون دراسة وتحليل للمكونات السردية التي تعمل ضمن نسيج واحد، فصياغة السرد لا تفضل مكوناً دون غيره، حين يجسد كل خبر تنويعاً خبرياً سردياً يصب في غاية واحدة، وهذا ما يكشفه الإطار الذي يهيئ في تماثله فضاء نصياً مشتركاً لإنتاج التنوع العلامي داخل الأخبار. وبذلك تتشكلُ المنظومة الخبرية عبر مجموعة من الأخبار يجمعها توجه مشترك لإضاءة مجال سردي محدد، ينمو هذا المجال ويتعقد انتقال الأخبار في معالجتها لمحمولاتها من الإخبار إلى التمثيل والتخييل. ولأن الإخبار يعمل على تغطية مساحة صياغية تقوم بمهمة النقل والإبلاغ لمحتوى معين فإن التمثيل والتخييل يتحققان بفعل ما تشهده العناصر الصياغية لأخبار المنظومة من تعقيد يمكنها من الانفتاح على مساحة سردية أوسع، لا تكتفي فيها بنقل المعلومة ونقل واقعتها الخبرية، بل تعمل على النصوص بطريقة تقول فيها معلوماتها وكيفية نقل واقعتها، فلا تستحضر الاخبار للنظر فيما يتعلق وراءها، بل تعمل على بناء مجالها الخاص، داخل منظوماتها الخبرية، مضيفة إلى رصيدها بُعداً تخييلياً، مخترقاً المرئي والمحسوس، ومقترحاً لعوالم مضافة(٣).

ونجد أن انتقال الخبر المفرد في أنساق بنائية وصياغية مختلفة، تمحنه القدرة على التحرك والتنقل من موضع إلى آخر، حين يتم التعامل معه بوصفه وحدة سردية مستقلة، شأنها شأن الأبيات الشعرية، أو الأمثال، أو نصوص الحكمة وصيغها. حتى وإن اختلف نظام ترتيبها ومجال صياغتها في مؤلفات متنوعة، فإن العلاقات التي تربط تلك الأخبار داخل سياقاتها، فضلا عن سياقات خارجية مع منظومات تأليفية أخرى، سمحت للخبر بأن يرد في أكثر من مؤلف واحد، مع استجابته في كل مرة للسياق وتناغمه مع العناصر المجاورة له بتنوع علاقاتها، التي تفسرها أنساقها الثقافية والبنائية والتأليفية(٤).

إن ما يحمله الخبر المفرد من استقلالية، تمنحه القابلية على تكوين علاقات متعددة ومتنوعة، مع الاخبار التي تحمل بينها تماثلا في التركيب وفي الدلالة، تجعل منها آصرة من أواصر الترابط بين الوحدات السردية الصغيرة المشكلة للمؤلفات العربية من خلال سيرورتها وتكوينها وارتباطها بمنظومات خبرية تنتمي لها تارة في مؤلف سردي واحد، ومؤلفات سردية متعددة تارة أخرى، فنجد أن الأخبار (تصبح بمثابة الخيوط التي تدخل في نسيج، فلا يفهم أحدها إلا بسائرها. وإذا مر خبر فهذا لا يعني أنه انتهى، وإنما يعني أنه أصبح رصيدا يتعين على القارئ أن يقرأ به الأخبار السابقة والأخبار اللاحقة. وبهذا يتضخم دور المؤلف فلا تعود مهمته القيام بالوساطة بين مصدر الخبر وقارئه، ولكنه يتولى – زيادة على ذلك – توجيه القراءة وربط الصلات بين الأخبار، وإنشاء علاقات جديدة بينها تزيد من طاقتها على التدلال)[٥]. وعلى التفاعل.

- **خصائص الخبر المفرد:**

يمتلك الخبر المفرد خصائصه التي تميزه، بما يحمله من دلالات معرفية وثقافية، لكن سرعان ما يعطي توجهات ودلالات أخرى، ويتمكن من انتاج معان أخرى، حين يعمل المؤلف على ادخاله ضمن منظومة خبرية، أي أن الخبر المفرد وما يحمله من وجهات معرفية وقدرة على الحركة والتنقل في المنظومات الخبرية، سيفتح له باباً للاتصال بمنظومات خبرية مرتبطة بمؤلفات متنوعة، ربما تماثله في موضوعها أو في نظام تأليفها، ليحصل بذلك على مجال دلالي ومقدرة على تمثيل مكوناته الثقافية واقامة حوارات ومد جسور بين مؤلفات مختلفة في عصر تنوع فيه التأليف وأزدهر. حيث (أننا في الأدب لا نواجه أحداثا أو أمورا في شكلها الخام، وإنما نواجه أحداثا معروضة بطريقة ما، وتتحدد مظاهر أي شيء بالرؤية التي تقدم لنا عنه)[٦].

ونجد أن من أهم ما يمكن للخبر الحصول عليه، من خلال عمله وتحقيق فاعليته داخل المنظومات الخبرية لعدة مؤلفات سردية هو إمكانية حصوله على القدرة السردية، التي يعد امتلاكها أحد أهداف علم السرد، وبذلك يتمكن الخبر من الانتقال بين تلك المؤلفات السردية وربطها، بوصفه مركزا لها حينا، وآصرة ترابط حينا آخر، تحصّلت له تلك الميزة من خلال مقدرته السردية. ويمكننا القول أن المنظومات الخبرية ليست مقترحا منهجيا في التأليف فحسب، بل هي خطة سردية تمنح الأخبار فاعلية من خلال عملها كإطار عام يتم من خلاله تنظيم السرد.

وبذلك تسعى الفاعلية الصياغية لنصوص السرد العربي، لتكون مُعبّرا فعليا عن سيرته، فكل نص يحمل سيرته معه، فيقول عن نفسه، ما يعبر عن سياقات إنتاجه وتأليفه، ويوطد حضوره، من خلال استناده إلى ما يحمله من معلومات، محافظا في صياغته على فاعلية إخبار تعمل على توجيهه وجهة محددة، تحمل تنويعا سرديا، فتحصل الأخبار المفردة في داخل منظوماتها على فرادة صياغية وموضوعية، تمنحه في الوقت ذاته، الفرصة لإقامة علاقات من الترابط والتداخل مع بقية الأخبار، فينتقل بِطاقاته التخييلية حاملا

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٧ – آذار لسنة ٢٠٢٢

تجربة شخصية ومحققاً فاعلية إخبارية، تمكنه من استيعاب أي تعقيد يحصل في نسجه ونسج النصوص المجاورة له[٧].

ويتوجب على ذلك معرفة أن العملية السردية هي عملية تبادلية بين مؤلف ومتلق، مرتبطة بسياقات تابعة لطرفين، أو أكثر، تأتي من رغبتهما – أي أحد الأطراف – في أن يكون للخبر قيمة وفاعلية يكتسبها باختلاف الأماكن التي يرد فيها، حين يرغب الطرف الأول/الراوي ايصال مقاصده من خلال الخبر، ويرغب الطرف الثاني/المتلقي بالمعرفة، فالنتيجة أن كلا من الطرفين قد حققا فاعلية داخل المنظومة الخبرية التي ينتميان لها، وتحقيق الفاعلية بين المؤلف والمتلقي، تؤكد على ارتباطهما الذي يحققه وجود السرد نفسه، لأن (مجرد تصوير سارد يحكي وقائع ومواقف لمسرود له يؤكد حقيقة أن السرد ليس نتاجا فحسب بل عملية وليس مجرد هدف وأيضا فعل يحدث في مواقف معينة نتيجة لعوامل محددة تستهدف تأدية وظائف محددة (الإخبار، لفت الانتباه، ... الخ))[٨].

فاعلية (أدب الكُتاب)*

يسعى أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت ٣٣٦ هـ) في كتابه (أدب الكُتاب)، ليجعل منه دليلا ومرجعا لكل كاتب ومؤلف، ففيه ما يحتاجه صغيرهم وكبيرهم، ويعوّل الجميع عليه، لتقريبه كل ما يحتاجون إليه، فهو (المستحق أن يسمى (أدب الكتاب) على الايجاب لا على الاستعارة. وعلى التحصيل لا على التمثيل. فإني رأيت من صنف مثل هذا الكتاب ونسبه هذه النسبة ولم يحصل له منه إلا تسميته دون تجسيمه، وتعميته دون ايضاحه وتقريبه من المعنى الذي ألبسه إياه، ونسبه إليه)[٩]. ففي الأعم الأغلب يعمد المؤلف في مقدمة مؤَلفه إلى الإفصاح عن غايات في التأليف، والسعي إلى تحقيقها، ويحدث ذلك حين تحقق تلك المؤلفات فاعليتها من خلال تحقيقها لغاية التأليف، وبما تحدثه من أثر في متلقيها وبين مجتمعاتها، وبقائها متداولة على مر العصور. (لأني أحب أن لا يصفر كتابي هذا من شيء يحتاجه الكاتب)[١٠].

ومما ذكر في وصاياه للكُتاب يقول:

(حدثني أبو الحسين محمد بن أحمد النيسابوري قال: سمعت الحسين بن يحيى بن نصر الجرجاني يقول قال إبراهيم بن العباس الصولي لغلام كان يكتب بين يديه "ليكن قلمك صلباً بين الدقة والغلظ. ولا تبرد عند عقدة. ولا تجعلن في أنبوبه أنبوبة. ولا تكتبن بقلم ملتوٍ، ولا ذي شق غير مستو. واختر من الأقلام ما يضرب إلى السمرة. واحدّ سكينك، ولا تستعملها لغير قلمك. وتعهده بالإصلاح يصلح. وليكن مقطك صلبا ليمضي الخط مستويا لا مستطيلا. وابر قلمك بين التحريف والاستواء، وإذا كتبت الدقيق فأمل قلمك إلى اقامة الحروف لاشباع الخط، وإذا جللت فإلى التحريف. واعلم أن تبطين القلم شؤم، وتحريفه حرف، وهما دمار الخط، واعلم أن وزن الخط مثل وزن القراءة، فأجود الخط أبينه، كما ان أحمد القراءة أبينها)[١١].

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٧ – آذار لسنة ٢٠٢٢

يؤكد الصولي على أن أحدى مهام الكاتب الناجح هي عنايته بخط كتابه واصلاحه، وحثه على الالتزام بصفات الخط الأنيق، الذي يخلو من الأخطاء ناهيك عن اللحن، ليكون جمالية من جماليات النص، التي تضاف للنص وتجذب المتلقي، فمثلما يحرص الكاتب على عنوان نصه وجمالية غلافه، بوصفهما عتبة للكتاب، فإن الكتابة وجمال الخط أحدى عتبات النص التي تمنحه قبولا واستحسانا، لابد للمؤلف أن لا يهملها ويحرص على الاعتناء بها.

ويؤكد الصولي أيضا على العناية بعنوان الكتاب وخاصة إن كان موجها إلى الرؤساء فيقول:

(وقالوا والأحسن في عنوان الكتاب أن يعظم الخط ويفخمه إذا ذكرت كنيته أو نسبته إلى شيء وأن تلطف الخط في اسمك واسم أبيك وتجمعه. وقال المحققون من الكتبة إن في ذلك إخلالا للمكتوب له وفي مخالفته غض منه وتطاول عليه. وان كانت آخر الكلمة ياء مثلا كأبي علي وأبي عيسى وأبي يحيى وأبي يعلي غرقت الياء إلى قدام ولم تردها إلى خلف فقد حكي في ذلك شيء مليح)[١٢].

لابد لكل كتاب من عنوان يدل عليه، إذ يحمل العنوان على عاتقه تبعات ما يلقى الكتاب، وبالأخص إن كان للسلاطين والرؤساء، الذين أغرتهم المناصب، وتعاظم شأنهم بفضل ما يملكونه من سلطة، فمن أصول مخاطبتهم، التفخيم والتعظيم بالكنى والألقاب، فضلا عن الخط، ويؤكد على أن رسم أسماء كالتي ذكرت فإن رد الياء فيها إلى الخلف يعد فألا للإدبار، وإن كانت للأمام فهي فأل للإقبال.

ومما يذكر عنه أيضا في الإيجاز والإطالة قوله:

(قال بعض الكتاب الايجاز في الابتداء أمكن منه في الجواب ما لم يكن منه اعذار وانذار ووعود وبدء وفتوح وعهود. قال أبو بكر: والذي عندي انه يحتاج الكاتب والخاطب والشاعر إلى أن يخرجوا معانيهم في أقواتها من الألفاظ على الاختصار ما لم يحتج إلى اكثار فان احتيج إلى ذلك جيء به بما لا بد منه. وقد حدثني محمد بن يزيد المبرد النحوي قال حدثني أبو محمد التوجي عن أبي عمر الأسدي قال قيل لأبي عمرو بن العلاء هل كانت العرب تطيل قال نعم ليسمع منها، قيل فهل كانت توجز قال نعم ليحفظ عنها)[١٣].

أي إن كتابات المؤلفين إن طالت وإن قصرت، لا يمكن لأي كان أن يقول أنها قد أخلت أو اساءت إلى قواعد الكتابة والتأليف، فللإجازة مزاياها كما للإطالة مزايا أيضا، وهذا الأمر باق ما على مر الازمان، لا يمكن لأحد إنكار جمالية الإيجاز، ولا أن ينكر الحاجة للإطالة، لما يستوجب الشرح والتفسير. ففي الأخبار رصيد ثقافي هام للكتاب، يتحصل عليه المؤلف من خلال ذكره لخبر من هنا وخبر من هناك، تصل إليه تلك الأخبار بمختلف طرق الرواية، مشافهة كانت أو تدوينا، فيحصل الخبر على فاعليته، ليس بوصفه خبرا قائما بمفرده فحسب، بل بما يجاوره من الأخبار، ويمنحه ترابطا سرديا معها، من دون التأثير على وحدته

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٧ – آذار لسنة ٢٠٢٢

السردية، في مختلف السياقات التي يرد فيها الخبر[١٤].

إن ضم هذه الأخبار إلى بعضها وتعاضدها معا يحقق فاعلية سعى المؤلف من خلالها لتحقيق غايات التأليف التي ألف الكتاب من أجلها.

إذن ما أكد عليه الكتاب هو أهم ما يحتاج إليه أي كاتب، يسعى إلى جعل مؤلفه، دليلا يحتذى به، ومرجعا يُصار إليه، حين السؤال عما يلزم الكتاب والمؤلفين خاصة، ليثبت أن هذا الكتاب لم يكن (معمولا لتابع دون متبوع، ولا خامل دون نبيه، ولا محروق دون محفوظ. ولا ينبغي لمن رفعته حال. وساعده جد، وهو يؤنس من نفسه تقصيرا في الأدب وتخلفا عن صناعة الكتابة، أن يغتر بحظه، واقبال الأيام عليه في وقت. فإنها دول منقلبة وأحوال متصرفة)[١٥]. فقد حرص على أن يكون الكتاب مُعينا لهم، يمدهم بما يحتاجون من معلومات ثقافية وأدبية ولغوية، تعينهم في ما يكتبونه من كتب ومؤلفات، وفي قراءتهم للمؤلفات والمكاتبات. وذلك يظهر من خلال مدونة الأخبار التي تحقق تلك الغايات لا بوصفها أخبارا مفردة بل بوصفها منظومة أخبار.

فاعلية (صناعة الكُتاب)

يذكر أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـــ) في كتابه (صناعة الكتاب): (ونحن نؤلف كتابا نجمع فيه ما يحتاج إليه الكاتب، ونجتهد في تقريبه، ونذكر فيه عيون ما ينتفع به من الخط، والهجاء، والعربية، واللغة، والمكاتبات على الترتيب للرجال والنساء، وعيونا من الرسائل، وغير ذلك. ونجعله مراتب عشرا، نذكر في كل مرتبة من (صناعة الكتاب) ما يشبه بعضه بعضا)[١٦]. وهذا ما يؤكد حاجة الكتاب والمؤلفين إلى مرجعيات ثقافية وأدبية تكون لهم، دليلا لا غنى لهم من العود إليه في كل ما يستصعب عليهم، أو يحدث فيه لبس لديهم، فإن تلك المؤلفات كانت كالمنقذ لهم يتجنبون من خلالها الوقوع فيما وقع فيه من سبقهم، مع تزويدهم بنماذج لما كان سائدا في تلك العصور، يحتذون بها في كتاباتهم، مع ما يتوفر لهم من إمكانات للزيادة عليها أو النقصان مع ما يتناسب مع عصورهم، ومع أنواع مؤلفاتهم ومتلقيها، على مر العصور.

ومما يتوجب علينا ذكره أن هناك من يرى أن (أدب الكتاب) هو نفسه (صناعة الكتاب)، ويثير تساؤلا: هل هما كتابان منفصلان عن بعضهما أم كتاب واحد؟ وقد ذكر المحقق في مقدمته أن (صناعة الكتاب) هو كتاب مستقل بذاته، على الرغم من اللبس الحاصل في العنوان لدى بعض المؤرخين. ويؤكد تقديمه نسخة من الكتاب، هادفا إحياء التراث العربي، مقدما للعالم مرجعا ينهلوا ما فيه من علم الكتابة والأدب، مؤكدا عناية النحاس بالتراث والنقل، أكثر من عنايته بتعليل ما ورد فيه[١٧].

وإذا كان ما يحتاج إليه الكتاب في مؤلفاتهم هو معرفتهم بأصول المكاتبات، بين نظرائهم، وبين رؤسائهم، أو بين العامة من الناس، من باب الإيجاز والاختصار أو الإطالة، فإن ذلك يأتي في مؤلف النحاس

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٧ – آذار لسنة ٢٠٢٢

من خلال فاعلية الإخبار فينقل:

(ومثل هذا يستحسن مع الرؤساء أعني الإيجاز والاختصار، لأن الإكثار يضجرهم حتى ربما مالوا إلى استقباح الحسن مما يكاتبون به، والرد عما يُسألون. وقد حكى عن أحمد بن يوسف الكاتب أنه قال: دخلت على المأمون وفي يده كتاب يعاود النظر فيه، ويُصعد ويصوب طرفه، فلما التفت إلي قال لي: يا أحمد، أراك مفكرا فيما تراه مني؟ قلت: نعم، وقى الله أمير المؤمنين المكاره، وأعاذه من المخاوف. قال: فإنه لا مكروه في الكتاب، ولكني قرأت كلاما ما كنت أتوهم أن أحدا يقدر على مثله، لأني سمعت الرشيد يقول: البلاغة التباعد عن الإطالة، والتقرب من معنى البغية، والدلالة من اللفظ على المعنى. ثم رمى إليَّ بالكتاب، فإذا هو: كتاب عمرو بن سعدة إليه، فقرأته، فإذا فيه: "كتابي إلى أمير المؤمنين، ومن قبلي من قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند، وقد تراخت أرزاقهم، وتباعد ما بين أعطياتهم، فاختلت بذلك أحوالهم، والتاثت معه أمورهم". فلما قرأته قال لي: إن استحساني إياه بعثني على أن أمرت للجند قبله بأعطياتهم لسبعة أشهر، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه، ومن حل محله في صناعته)[١٨].

يتخذ الخبر من حضور الخليفة، وتأثره بحسن الصياغة، سبيلا إلى النصيحة، وكيف يكون حسن الكتابة، مدخلا لتحقيق الغاية، فتلتبس النصيحة بالوصية، فإن مخاطبة الرؤساء والملوك من الأمور التي لا مناص لأي كاتب من معرفتها، طمعا في نيل عطاياهم، فضلا عن مخاطر الوقوع تحت سطوة جبروتهم وغضبهم، فإن الملوك لا تُعرف أهواؤهم، ولا ما يدور في خلدهم، فيحرص الكتاب على تجنب بطشهم، بأن يحرصوا على تحسين ما يكتبوا، من خلال عنايتهم، بجمال اللفظ، وبلاغة المعنى، مما ينال استحسان الملوك، ويثير اعجابهم، فيلبوا لهم ما يطلبون فضلا عن إعلاء شأنهم، وحصولهم على عطاياهم، بأقصر العبارات وأبلغها، متجنبين الطويل منها، وما يجافي السمع، ومن يمتلك ذلك ينال حظوة لدى السلطان.

وينظم إلى الخبر الأول، الخبر الثاني، الذي يشكل معه تكاملا، وهو من البلاغة، والإيجاز في مخاطبة الملوك، وعدم الإطالة في الحديث بين يديهم، يقول:

(دخل ابن السماك على الرشيد، فقال له: تكلم وأوجز، قال: "إن أخوف ما أخاف على نفسي الدخول إليك". فغضب الرشيد، وقال: لتخرجن مما قلت أو لأفعلن بك وأصنعن. قال: أنت ولي الله في عباده، فإن أنا لم أنصح لك فيهم، وأصدقك عنهم خفت من الله عز وجل في ذلك: اتق الله في رعيتك، وخف المرجع إليه، لم أر أحسن من وجهك فلا تجعله للنار حطبا" قال بعضهم: رب هلك بالثناء عليه، ومغرور بالستر عليه، ومستدرج بالإحسان إليه. وقال الفضل بن عباس: إذا قيل لك: أتخاف الله؟ فاسكت، فإن جئت "بلا" جئت بأمر عظيم، وإن قلت "نعم" فالخائف لا يكون على ما أنت عليه من الامان)[١٩].

إن بلاغة الكتاب وما يملكون من مهارات لغوية، أحدى وسائلهم في مواجهة الخلفاء وولاة الأمر، فعادة

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٧ – آذار لسنة ٢٠٢٢

ما يهزمونهم، ويتلافون غضبهم، بعبارات بلاغية، يجملون فيها مخاطباتهم، التي تحمل ذما بصيغة مدح، يخشون الإفصاح به، فيتكلمون موجزين، للوصول إلى غاياتهم، متجنبين بطش الخلفاء، بحكمة ومعرفة ودراية لما يقولون.

ويذكر في فضل الكتابة على سائر الصناعات، مخاطبا بعض الأدباء بقوله:

(فضيلتك بالعلم الثاقب والأدب البارع فضيلة تكافأ أهل الشرق طرا إلى معرفتها والاعتراف بها، حتى صار الإقرار بذلك فضيلة، وزينة للعالم المتقن. فأما الخصائص التي لك في الدين والزلفة وصحة الوفاء والمحافظة، ومجانبة كل ما يدنس عرضا أو يثلم مروءة فكثيرة مشهورة، حليت بها الأدب، وتخطيت بها إلى الحسب لأن أدب المعرفة إذا انفرد عن أدب النفس وكرم الخلق كان عائبه والقادح فيه أكثر من واصفه ومطربه. وقد جمع الله لك من ذلك ما هو متفرق في غيرك، وجعلك ممن يكاثر بك ويفاخر، فتعلو يد من يناضل، ولسان من ينطق بفضله، فوهب الله لك شكرا يكافئ نعمه، ويفيء بإحسانه)[٢٠].

إن في فضل الكتابة بوصفها علما ومعرفة، أمرا لا يمكن تخطيه حين يكون من أولى أولويات العلم صناعة الكتاب، لما يمتازون به من فضيلة علم ثاقب، وأدب بارع، فضائل لا تنكر لأهل العلم تمنحهم رفعة ومنزلة، يجعل من توارد أخبارهم، ما يسر المتلقي، ويمنحه الرغبة لأن يحتذي به، وينال بعضا مما لديهم، في سعيه لاكتساب العلم والمعرفة، يجملون به أنفسهم، ويزينون به عقولهم، ويكسبون من خلاله الفرص للتقرب من مجالس العلماء والمحدثين، وقدرتهم على فهم ما يسمعون منهم، وقدرتهم على نقله، أو مجاراتهم للأحاديث، ومناقشتهم لمن هم أدنى منهم معرفة وأقل منزلة.

يؤكد كلا من (الصولي) و(النحاس)، في كتابيهما (أدب الكتاب) و (صناعة الكتاب)، على أن لابد من وجود، مرجع ودليل، لكل كاتب، يجمع فيه كل ما يحتاج إليه من مرجعيات فكرية ودلالية وأمور أدبية وبلاغية، تمنحهم القدرة على جعل كتاباتهم تسير في النهج الصحيح لكتاب ومؤلفين سبقوهم في الزمان، (ولولا أن من لا يحسن الكتابة يجد ممن يحسنها معونة وإبانة عنه لما استقام له أمر ولا تم له عزم ولحلَّ محل الصور الممثلة والبهائم المهملة)[٢١]. حرص كل من المؤلفَين على جمع خلاصة خبرتيهما، ووضعها بين أيديهم، (فيما يحتاج إليه اعلى الكتاب درجة، وأقلهم فيه منزلة، وجعله جامعا لكل ما يحتاج الكاتب إليه، حتى لا يعوّل في جميعه إلا عليه)[٢٢]. فأجتهد كل منهما في تقريب كل ما يحتاج وينتفع به الكتاب، من خط، ولغة، وبلاغة، وفصاحة، مركزين عنايتهم على التراث والنقل، أكثر من عنايتهم بتوضيح وتعليل ما جاء فيها، مؤكدين على أن (من العلم صناعة الكتاب)[٢٣].

وبذلك يكون في فضل الكتابة والتأليف ما يفرض على أهل العلم والأدب التأكيد على فضلها وأهميتها ودورها في إغناء التراث وإحيائه، ليرغب (أهل هذه الصناعة الشريفة في الإقبال عليها، وانفاق بعض العمر في طلبها. فإنها من أجل ما كدّ فيه الفكر وقطعت به الأيام)[٢٤]. على الرغم من ذِكرنا لمن حاول القول أن

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٧ – آذار لسنة ٢٠٢٢

الكتابين هما كتاب واحد، إلا وجودهما ككتابين مستقلين في المكتبات، يغني وجودهما تراثنا الثقافي، أمر لا يمكن إنكاره، أحدثا أثرا، وحققا فاعلية من خلال تحقيقها لغاية المؤلف في التأليف.

فاعلية الخبر المفرد

وتعنى مؤلفات السرد العربي، بذكر أخبار العصور السالفة، بما يتلاءم وحاجة المتلقين لها، فيحرص المؤلفون على أن يحمل كل خبر من تلك الأخبار (سمة معرفية أو أكثر، بما يمنح الأخبار مساحة سردية أكثر اتساعا تمكنها من استيعاب التعقيد الحاصل في نسجها وتهيء لكل منها المجال للالتحام في بعد تركيبي مع باقي الأخبار)[٢٥]. فضلا عن ورودها أكثر من مؤلَف مع اختلاف العنوانات التي ترد فيها، مع حفاظها على موضوعها، وفاعليتها داخل المؤلف، وخارجه، فتحتفظ بأثرها بوجودها في مؤلفين مستقلين، وداخل منظومتين خبريتين مستقلتين. إذ أن (الخبر المفرد ربما مر بمسار في التنقل طويل، فكان على التوالي يفصل عن سلسلة الأعمال ويدمج فيها قبل أن يظهر في المصدر الذي يهمنا. ونتيجة لهذا المسار وتشتت الأخبار، وبطبيعة الحال فإن للعنصر الواحد حظوظا في البقاء، أوفر مما للأثر الذي منه استُمد. إن التوازي بين العناصر المفردة في آثار مختلفة يمثل أحدى خصائص أدب الأخبار)[٢٦].

فيذكر الصولي:

(قال أبو بكر حدثنا محمد بن القاسم قال حدثنا الاصمعي قال قدمت على الرشيد في بعض قدماتي فقلت "ما ألاقتني الأرض حتى رأيت أمير المؤمنين" فلما خرج قال ما معنى ألاقتني قلت ما ألصقتني بها ولا قبلتني. والصواب المختار أن يقول ألقت الدواة فأنا مليق لها وهي ملاقة، وحكى عن ابن دريد القت الدواة ولقت من لاق يليق فهو لائق وذاك مليقة من هذا والمصدر لاق ليقا وليوقا)[٢٧].

هذا الخبر الذي أورده (الصولي)، في (أدب الكتاب)، يعيد روايته (النحاس) في (صناعة الكتاب)، برواية مختلفة يقول:

(أن الأصمعي غاب عن الرشيد غيبة طويلة، فلما وافى داخل إليه، فقال له: يا عبد الملك، أطلت الغيبة، فقال: يا أمير المؤمنين، ما ألاقتني أرض حتى وافيتك. فلم يدر الرشيد ما معنى ألاقتني فأمسك مغتاظا، فلما أنفض الناس، قال: ما معنى ألاقتني؟ قال: أقرتني وأثبتتني، فقال له: احذر أن تكلمني بين العامة بما لا أفهمه. فممن امتنع من النحويين من ملازمة السلاطين إجلالا للعلم، وغنى نفس: الخليل بن أحمد، وبكر بن محمد المازني)[٢٨].

أهم ما يلفت في الخبر وهو ينتقل من مؤلف الصولي إلى مؤلف النحاس، هو قدرته على التجدد وتحقيق الفاعلية، فبينما يبدو باردا عند الصولي، وتركيزه على معنى (ألاقتني) فإنه عند النحاس مؤثرا ومتجددا وفاعلا، فالرشيد يرحب بالراوية، ثم يغضب، ثم يحقق الخبر فاعليته من خلال تبرير غيبة النحويين عن مجالس الخلفاء.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٧ – آذار لسنة ٢٠٢٢

فجاءت رواية الخبر بتفصيل مختلف، أغنى الحدث، بما دار في المكان من حديث بين الرشيد وبين الأصمعي، مع ذكر الموقف الذي دعا بعض النحويين لتجنب حضور مجلس الخليفة، لئلا يقعوا بما وقع فيه الأصمعي من تحذير الرشيد له، بعدم تكليمه بما لا يفهم بين العامة منعا لوقوعه في الحرج، فضلا عن بيان مواقع ضعف في ثقافة الخليفة وعدم معرفته بأمور لغته ومعانيها. فإن مجيء الخبر في أكثر من مؤلف (ليس إلا دليلا على قدرة الخبر الفائقة على التحول من موضع إلى آخر، والاستجابة لمتطلبات السياق المختلفة)[٢٩].

فقد حصل خبر الأصمعي في (صناعة الكتاب) على تفصيل وتعليق، مختلف عما ورد في (أدب الكتاب)، أسهم في منحه فاعلية خبرية، استمدت قوتها من منظومته الخبرية التي ورد فيها، ومن خلال إعادة إنتاجه داخل مؤلف سردي مختلف. لأن السرد يمتلك وظائف كثيرة ويتفرد بها فهو (يقص واقعة أو أكثر، ...، كما أنه يمثل نوعا معينا من المعرفة فهو لا يعكس مرآويا ما يحدث، أنه يكتشف ويخترع ما يمكن أن يحدث، وهو لا يحكي مجرد تغييرات في الحالة، إنه يشكلها ويفسرها كأجزاء ذات دلالة لدال كلي، وعلى هذا فالسرد يمكن أن يلقي الضوء على قدر فردي أو مصير جماعي)[٣٠].

ومثله ما ذكر عن أول من كتب الكتاب بالعربي، يقول:

(وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وعروة بن الزبير أنهما قالا: "أول من وضع الكتاب العربي قوم من الأوائل نزلوا في عدنان بن أد بن أدد اسماؤهم أبجد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت فوضعوا الكتاب العربي على أسمائهم ووجدوا حروفا ليست من أسمائهم وهي الثاء والخاء والذال والظاء والضاد والطاء والغين فسموا بالروادف" وقد روي أنهم كانوا ملوك مدين وأن رئيسهم كلمن وانهم هلكوا يوم الظلة مع قوم شعيب عليه السلام فقالت اخت كلمن ترثيه:

كلمون هد ركني	**هلكه وسط المحله**
سيد القوم أتاه الـــ	**ـــحتف نارا وسط ظله**
كونت نارا فأضحت	**دار قومي مضمحلة**

وقيل أن هؤلاء أخذوا كتاب اسماعيل عليه السلام فعملوا منه كتابا يتعلم منه لأن الأحاديث عنهم أنهم استعربوا ووضعوا الكتاب العربي والله أعلم)[٣١].

حرص الصولي على ذكر أول من كتب بالخط العربي من الأقوام الأولى، وتأكيده لفضل الكتابة، فهي كما يقال رأس لكل صناعة، وتتم بها جوامع الأعمال، مع حرصه على ذكر ما توافر إليه من أسانيد، ليقرب على من يطلبه أو يستفيد منه.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٧ – آذار لسنة ٢٠٢٢

ويذكر النحاس الخبر نفسه، بإسناد مختلف وبرواية أخرى، في باب ما ذكر عن (أبي جاد):

(روي عن العلماء فيها أقوال منها: ما روي عن هشام بن عروة عن أبيه، قال: أول من وضع الكتاب العربي: أبجد، وهوز، وحطي، وكلمن، وسعفص، وقرشت. وكانوا من أميم، وهم رجال من الجبلة الأولى، ومن أميم كان طسم، وجديس، وعنز، فوضعوا الكتاب على اسمائهم، وحذفوا حروفا ليست من أسمائهم، وهي: الخاء، والذال، والظاء، والثاء، والشين، والغين، وهي الروادف، وهي التي تحسب في حساب الجُمل بعد حروف: أبي جاد، وهواز، وحطي، وكلمن، وصعفص، وقرشت. فهم أول من كتب الكتاب العربي. .... وكان هلكهم يوم الظلة في زمن شعيب عليه السلام. وأما محمد بن جرير فحكى عن المثنى بن إبراهيم عن إسحاق بن الحجاج عن عبد الرحمن بن واقد عن الفرات بن السائب عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال: ليس شيء إلا وله سبب، وليس كل أحد يفطن له ولا بلغه ذلك أن "لأبي جاد" حديثا عجيبا، أما "أبو جاد" فأبى آدم عليه السلام الطاعة، وجد في أكل الشجرة/ وأما "هواز" فزل آدم عليه السلام فهوى من السماء إلى الأرض، وأما "حطي" فحُطت عنه خطيئته، وأما "كلمن" فأكل من الشجرة، ومُنَّ عليه بالتوبة، وأما "صعفص" فعصى آدم ربه، فأخرج من النعيم إلى النكد، وأما "قرشت: فأقر بالذنب، وسلم من العقوبة)[٣٢].

فتكرار الخبر في مؤلفين مختلفين، والذي قد يعده البعض، دليلا على خلط وتهاون، داخل نظام المؤلفات، ما هو إلا توظيف من قِبل المؤلف، لأخباره (فالخبر قد يخدم غايتين، ولهذا يؤتى به من مصدرين إن وجدت له روايتان، أو يعمد إلى تكراره مع بعض التغيير الطفيف إن لم تتوفر منه إلا رواية واحدة)[٣٣]. مع تغيير الروايات عن مصائر الشخصيات التي يذكرها الخبر، أو تغييرات في الأحداث، وكيف سارت وما آل إليه الخبر من نهاية، قد تختلف من راو إلى آخر.

وعلى ذلك يمكن القول أن (الكتابة تحتاج إلى مغامرة، إلى اقتحام، إلى توسيع أفق، تحتاج إلى طريقة بل طرق جديدة وغير مسبوقة في تقصي الظواهر المعقدة من الواقع الذي تغير تغييرا أساسيا)[٣٤]. إذن تتحقق فاعلية الإخبار في مؤلفات السرد العربي القديم من خلال تحقيق تلك المؤلفات، لغايات مؤلفيها، في التأليف، فضلا عن تحقيق أخبارها فاعليتها، بوصفها (وحدات سردية ذات قدرة على التنقل من موضع إلى آخر، وهي في تنقلها ذلك تحافظ على خصوصيتها واستقلالها من جهة، وتنشأ بينها وبين أخبار أخرى علاقات جديدة من جهة ثانية)[٣٥]. من خلال ورودها في منظومات خبرية مختلفة، وبروايات مختلفة، داخل مؤلفات سردية مستقلة، لكل منها منظومته الخبرية الخاصة به، وما يعمل على منحها تلك الفاعلية، هو التفصيلات التي تذكر فيها باختلاف رواتها أو باختلاف اسلوب روايتها، وما تحمله من تعليقات على ما ورد فيها من أحداث، بإضافة أو حذف أو تفصيل، يُغني تلك الأخبار، فضلا عن حضورها الفاعل في مؤلفات السرد العربي القديم الذي لا غنى لمتلقي السرد العربي عن العناية به واحيائه، لإحياء تراث الأمة، وإبراز كل ما تمتاز به تلك المؤلفات من جماليات أدبية وثقافية.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٧ – آذار لسنة ٢٠٢٢

وفي ختام البحث يمكننا القول أن كل خبر مفرد يمتلك قدرة سردية، من خلال تحقيق فاعليته، إن كان مفردا يقوم الراوي بروايته بنفسه، أو وسيط ينوب عنه، فضلا عن دخوله ضمن منظومات خبرية يعمد إليها المؤلف، من دون تنازله عن التحكم بمجراه، قد منحه القدرة على الحركة، والانتقال وتحقيق مقاصد مؤلفه، بانتقاله من الإخبار إلى فضاءات أوسع يمنحها له التخييل والتمثيل.

الهوامش

١. ينظر: بلاغة التزوير، ص: ١٠-١١.
٢. ينظر: المعجم الوسيط، مادة (فعل)، ص: ٦٩٥.
٣. ينظر: بلاغة التزوير، ص: ٤٢.
٤. الخبر في الأدب العربي، ص: ٤٢٠.
٥. الخبر في الأدب العربي، ص: ٤١٩.
٦. البناء الفني في الرواية العربية في العراق، ص:١٧٣.
٧. ينظر: بلاغة التزوير، ص: ٣٦.
٨. ينظر: المصطلح السردي، ص: ١٤٧.
٩. أدب الكتاب، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، نسخه وعني بتصحيحه وتعليق حواشيه: محمد بهجة الأثري، نظر فيه: السيد محمود شكري الآلوسي، المكتبة العربية - بغداد، المطبعة السلفية - مصر، ١٣٢٤هـ، مقدمة المؤلف، ص: ٢٠.
١٠. ادب الكتاب، ص: ١٨٦.
- يُنصف كتاب (أدب الكتاب) ضمن المؤلفات السردية الاخبارية التي تُعنى بتقديم النصح والإرشاد، ونقل خبرة وتجربة الكاتب، لتتحقق بذلك فاعلية المؤلف من خلال تحقيقه لغاية مؤلفه، وما حوته تلك النصوص السردية، من تجربة وخبرة لا يلغي كونها نصوصا تمتلك قيمة سردية، على الرغم من أن هناك من يراها فاقدة لمقوماتها السردية أو أنها لم تؤد وظيفتها، ويتهمها البعض بالضعف، لكنها تبقى نصوصا اخبارية أدت وظيفتها في تقديم النصح والارشاد للكتاب فضلا عن خبرة وتجربة كُتابها، وأغنت رصيدهم الثقافي، وهذا ما حرص على تحقيقه المؤلف.

١١. أدب الكتاب، ص: ٥٤.
١٢. ادب الكتاب، ص: ١٤٤.
١٣. ادب الكتاب، ص: ٢٢٨ - ٢٢٩.
١٤. ينظر: الخبر في الأدب العربي، ص: ٤١٣.
١٥. ادب الكتاب، ص: ٢١.
١٦. صناعة الكتاب، لأبي جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل النحاس، تحقيق: دكتور: بدر أحمد ضيف الأستاذ المساعد بكلية الآداب، جامعة طنطا، دار العلوم العربي، بيروت - لبنان، ١٩٩٠ م - ١٤١٠ هـ، الطبعة الأولى، ص: ٤٥.
١٧. صناعة الكتاب، كلمة المحقق، ص: ١٣ - ١٤.
١٨. صناعة الكتاب، ص: ١٦٥ - ١٦٦.
١٩. صناعة الكتاب، ص: ٢٠٦.
٢٠. صناعة الكتاب، ص: ٢٨٢ - ٢٨٣.
٢١. أدب الكتاب، ص: ٢٢.
٢٢. أدب الكتاب، ص: ٢٠.
٢٣. صناعة الكتاب، ص: ٢٥.
٢٤. أدب الكتاب، ص: ٢٦.
٢٥. بلاغة التزوير، ص: ٣٦.
٢٦. الخبر في الأدب العربي، ص: ٤١٣.
٢٧. أدب الكتاب، ص: ٩٩.
٢٨. صناعة الكتاب، ص: ٣٨.
٢٩. الخبر في الأدب العربي، ص: ٤١٥.
٣٠. المصطلح السردي، ص: ١٤٨.
٣١. أدب الكتاب، ص: ٢٩ - ٣٠.
٣٢. صناعة الكتاب، ص: ٦٦ - ٦٧.
٣٣. الخبر في الأدب العربي، ص: ٤٢٩.
٣٤. السردية العربية الحديثة، ج٢، ص: ٩٠.
٣٥. الخبر في الأدب العربي، ص: ٤١٣.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ - المجلد ٤٧ - آذار لسنة ٢٠٢٢

المصادر

١. أدب الكتاب، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، نسخه وعني بتصحيحه وتعليق حواشيه: محمد بهجة الأثري، نظر فيه: السيد محمود شكري الآلوسي، المكتبة العربية - بغداد، المطبعة السلفية - مصر، ١٣٢٤هـ، مقدمة المؤلف.

٢. بلاغة التزوير فاعلية الإخبار فِي السرد العربي القديم، د. لؤي حمزة عباس، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ- ٢٠١٠م.

٣. البناء الفني للرواية العربية في العراق، د. شجاع مسلم العاني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٤.

٤. الخبر فِي الأدب العربي ، دراسة فِي السردية العربية، الدكتور محمد القاضي، دار الغرب الإسلامي ، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٥. السردية العربية، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، د. عبد الله إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠.

٦. صناعة الكتاب، لأبي جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل النحاس، تحقيق: دكتور: بدر أحمد ضيف الأستاذ المساعد بكلية الآداب، جامعة طنطا، دار العلوم العربي، بيروت - لبنان، ١٩٩٠ م - ١٤١٠ هـ، الطبعة الأولى.

٧. المصطلح السردي، تأليف: جيرالد برنس، ترجمة: عابد خزندار، مراجعة وتقديم: محمد بريري، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣.

٨. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، مكتبة الشروق الدولية.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٧ – آذار لسنة ٢٠٢٢